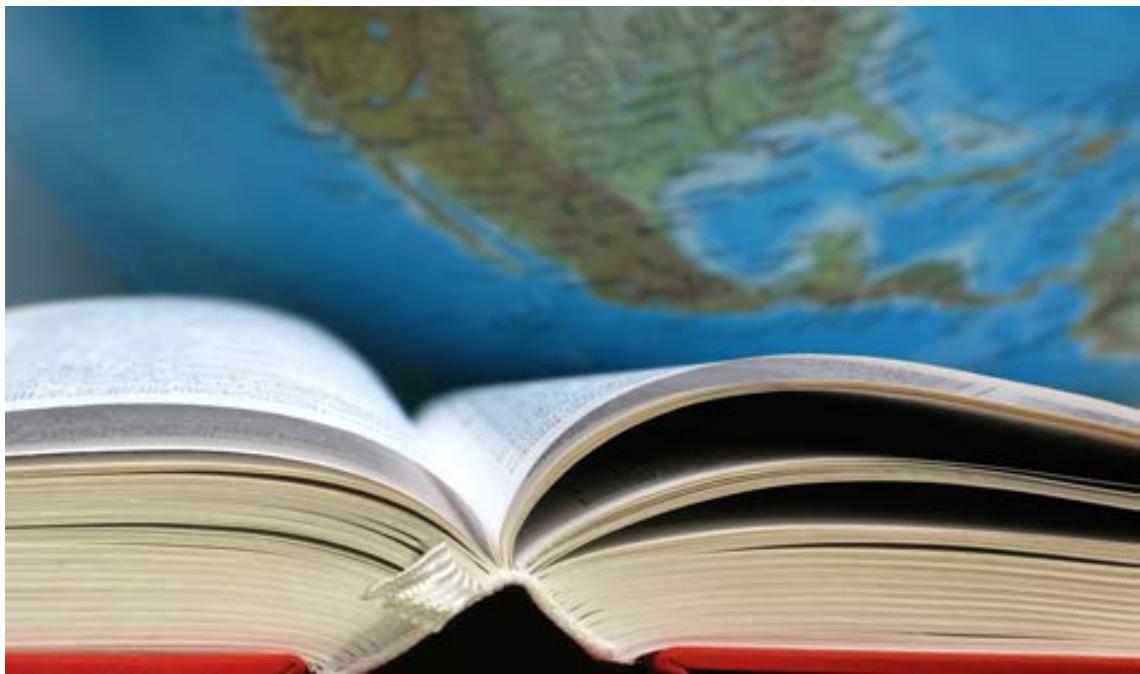


الترجمة.. أدب وفن ومسؤولية



مع مرور الزمن ظهرت الحاجة إلى ظهور قواعد ومبادئ خاصة تنظم الترجمة وتأخذ بيد المترجم نحو انجاز ترجمة أفضل، وتقديم المادة المترجمة في إطار تمتزج فيه الأمانة - أي المحافظة على روح النص الأصلي - بالإبداع الفني؛ أي أن لا يظهر النص الأصلي في صورته الجديدة بشكل غير محبب إلى القارئ. الترجمة أحد الحقول الأدبية المهمة التي قد تخفي أهميتها على الكثيرين، لا سيما على الصعيد الأدبي والثقافي والاجتماعي، بل وحتى على الصعيد العلمي. وتعد من الفنون القديمة التي أقدم عليها الإنسان واستطاع بواسطتها أن يوصل الأمم بعضها ويقلص بين الهوة الفكرية والثقافية التي تفصل بينها. أي أن "الترجمة كانت هي النافذة الوحيدة التي كانت تطل منها أمة ما على أمم أخرى، فتتبادلان المعلومات والثقافات والأفكار والقيم. وليس بمقدور أحد أن ينكر الدور الذي لعبته الترجمة في حركة الحضارة الإنسانية، ونقل الإنسان نقلات نوعية كبيرة على طريق النضج والازدهار في شتى الحقول المعرفية، ورفده بمقومات الانطلاق باتجاه ما يحقق له المزيد من التكامل. فالإنسان يمارس من خلال الترجمة دور الأخذ والعطاء، فيأخذ لكي يكمل ما لديه من نواقم وفراغات فكرية وعلمية، ويعطي لكي يكمل ما لدى غيره من تلك النواقم. فالترجمة بتعبير آخر تمثل أروع حالات التلاقي الفكري التي شهدتها الحضارات الإنسانية. وليس بخافٍ على أحد التأثير الذي تركته الترجمة على العالم الإسلامي في مجال الفلسفة، لا سيما بعد تأسيس المؤامون العباسيين بيت الحكم وتعريب الكتب اليونانية، ووقف المسلمين على فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما

من كبار فلاسفة اليونان القديمة. وقد مهدت هذه الترجمة لظهور فلسفة إسلامية ناشطة على يد الكندي، والفارابي، ومن ثم تطورها على يد ابن سينا وأضرابه. كما لا يخفى أيضاً التأثير الكبير الذي تركته ترجمة كتب العلماء والمفكرين المسلمين على الغرب ومساهمتها في اخراجه من دوامة التخلف والضياع التي كان يعاني منها، والاستعانة بها في وضع لبناء حضارته التي اكتسح بها العالم فيما بعد، حتى ان كتب الكثير من هؤلاء العلماء والمفكرين المسلمين كانت تدرس لفترة طويلة في الجامعات الغربية وتتناقش آراؤهم ونظرياتهم فيها، كالرازي، وابن سينا، والحسين بن الهيثم، وجابر بن حيان، وابن رشد، وغيرهم. - تعريف الترجمة: وإذا كانت الترجمة تعني نقل كتابة أو قول ما من لغة إلى لغة أخرى، فأفضل أنواع الترجمة هي تلك التي تنتقل ذات التأثير الذي تركه نفس تلك الكتابة والقول على قارئ أو سامع اللغة الأولى إلى قارئ وسامع اللغة الثانية. أو ان" الترجمة بتعبير آخر نقل نصل ما من لغة إلى لغة أخرى بدون أدنى زيادة أو نقصان في الشكل والمعنى. والحقيقة إن" هذا التعريف للترجمة، تعريف مثالي، أو لا يخرج عن الإطار النظري، ولا يمكن أن يتتحول إلى واقع عملي، فمن المتعذر أن يشتراك مقال مكتوب بلغتين مختلفتين بنفس التأثير مهما كان النصان متقاربين في الشكل والمضمون. ولا شك في أن" العديد من العوامل التي تقف خلف ذلك تعود بالدرجة الأولى إلى اختلاف كل لغة في هيكليتها وطبيعة تركيبتها، وبالدرجة الثانية إلى نمط كل أمة من الأمم في التعامل مع اللغة وطريقة تأثيرها بالمواقف المستعرضة ونظرتها إلى الأشياء، بل وحتى فهمها العام للحياة ورؤيتها الكونية. فقد يستقطب موضوع ما اهتمام أمة من الأمم، وقد لا يعد نفس هذا الموضوع مهما ابدأ لدى أمة أخرى، وقد يروق من المواضيع لأمة مالا يروق لأمة ثانية، وقد لا تعني الطريقة التي تفجر صك الغربي، شيئاً عند الشرقي، وهكذا. فالتركيبية اللغوية هي العامل الأساس وراء الاختلاف في التأثير بين اللغات، حيث تستخدم كل لغة مفردات خاصة بها، تتميز كل مفردة منها بمعنى أو معان خاصة أيضاً. ويعود وقوع وترتيب المفردات في كل لغة إلى قواعد تلك اللغة التي تختلف بطبيعة الحال عن قواعد آية لغة أخرى، مما يعطي للجمل والعبارات روحًا خاصة تختلف عن الروح التي تمنحها اللغة الأخرى لنفس المفهوم ولذلك يبدو من المتعذر نقل الروح التي يتسم بها موضوع ما في إحدى اللغات إلى عين الموضوع في لغة أخرى، فضلاً عن امتناع نقل نفس الشكل والمصورة، دون اللجوء إلى نوع من التلاعب الفني المفروض الذي تملئه طبيعة اللغة المترجم إليها، كحذف بعض الكلمات والحراف وإضافة البعض الآخر، والتقديم والتأخير في بعض المفردات، وجملة ما تفرضه الطبيعة الفنية والتركيبية للغة الثانية، فضلاً عنأخذ ذوق القارئ الجديد ونفسيته بنظر الاعتبار. - صعوبة مهمة المترجم: وانطلاقاً من ذلك، ومع مرور الزمن ظهرت الحاجة إلى ظهور قواعد ومبادئ خاصة تنظم الترجمة وتأخذ بيد المترجم

نحو انجاز ترجمة أفضل، وتقديم المادة المترجمة في إطار تمتزج فيه الأمانة - أي المحافظة على روح النص الأصلي - بالإبداع الفني؛ أي ان لا يظهر النص الأصلي في صورته الجديدة بشكل غير محبب إلى القارئ الثاني، مما ينعكس سلباً على رأيه بذلك النص ومؤلفه، وهذا يعني انَّ المترجم أمام مهمة خطيرة جدًا وليست باليسيرة كما يتصور البعض من غير الاختصاصيين. فالترجمة في الحقيقة مهمة شاقة، بل وأشق من مهمة التأليف بكثير. فالمؤلف يكتب بلغته التي ليس لديه مشكلة فيها، ويعبر عن أفكاره التي يفهمها ويدركها أكثر من غيره، ولهذا لا يواجه الصعوبة التي يواجهها المترجم على صعيد اللغة والمفردات والصياغة اللغوية التي لابدُّ فيها من إيجاد التوازن الكامل بين لغتين مستقلتين، تتميز كل منهما بقواعدها الخاصة ونمطها الخاص، وأسلوبها الاسترالي الخاص، وحتى إيقاعات مفراداتها، وتناسق تعبيرها، وطبيعة انسجامها مع روح القارئ التي كتبت له ونمط تفكيره، وخلفيته الفكرية والحضارية، والكثير من العوامل والمرتكزات اللغوية والذهنية والفنية؛ وكذلك على صعيد المخاطر والمحاذير التي يواجهها في عملية نقل الأفكار والرؤى، وضرورة عرضها على قارئ اللغة الجديدة بالشكل الذي يحافظ على مدلولاتها وبيت القصيد فيها، فضلاً عن وجوب تقديمها بالصورة التي لا تفقدها الجذابة التي كانت لديها في اللغة الأُم، ولا تخل بطبعها الجمالي والفنى. - حفظ روح النص وفكرته: ومن هنا يتضح لنا مدى ثقل المهمة التي يواجهها المترجم في عملية الترجمة لأن فيها التحديد والتقييد من جهة، والمطالبة بالإبداع والتألق من جهة أخرى. والذي لم يمارس الترجمة أو لم يتوجل في أعماق هذا الحقل الأدبي الفنى، لا يدرك جسامته تلك المهمة الصعبة الكبيرة التي يواجهها المترجم خلال عملية الترجمة، حتى وإن كان النص مما يعد من النصوص السهلة. لأنَّ القضية ليست أن يعطي المترجم لكل كلمة معناها في اللغة الثانية، وإنما أن يقدم النص الأصلي نفسه دون زيادة أو نقصان - قدر المستطاع - ولكن بثوب جديد، فلابدُّ له أن يحافظ على محتواه وروحه وفكرته من جانب، وأن يحفظ صورته وشكله وصفاته وحركاته وسكناته وكل ما يتعلق بالظاهر من جهة أخرى، أي لو قدر للمؤلف أو القارئ الذيقرأ ذلك النص بلغته الأولى، أن يعرف اللغة الثانية، ويقرأه في هذه اللغة أيضاً لما وجد هناك اختلافاً بين النصين الأول والثاني، ولادرك أنَّ الثاني يساوي الأول، أو هو نسخة مصورة عنه. هذا الكلام يثار بالطبع على الصعيد النظري أو المثالى، لكنه كلام صحيح وليس فيه ما يتثير الاستغراب، وان كان الوصول إليه عملياً أمراً في غاية الصعوبة، لأنَّ المترجم لا يمكن للمترجم أن يضع نفسه موضع المؤلف، فيحمل فكره، وروحه، وأسلوبه، وطريقة تفنته، وقابليته على إيصال الفكرة المطلوبة للقارئ، كما انه لا يرقى إلى مؤلف ذلك النص في فهم الجمهور الذي يكتب له ومدى استيعاب الجمهور لفكرته والطريقة الأمثل في التحدث إليه وال النفاذ إلى قلبه. فالترجم حينما يتم لا يحمل عن

المؤلف سوى النص الذي بين يديه، ومن الصعوبة، أو من المتعذر أن ينقل إلى القارئ من خلاله كل ما كان المؤلف يسعى لنقله إلى قارئه. وغاية ما يمكن أن يقوم به المترجم هو أن يحافظ على المفهوم والمعنى العام الذي يتسم به النص، مع ضرورة الالتزام بالأمانة في نقل ما يفهمه المترجم من النص، أو ما يمكن أن نعبر عنه بالأمانة في الترجمة. إلا أنه ليس بإمكانه أن ينقل إلى القارئ الجديد، ما عرضه المؤلف على القارئ الأصلي. - جمهور المترجم: أضف إلى ذلك أن "المترجم يواجه صعوبة أخرى أيضاً لا يواجهها المؤلف تتصل بطبيعة الجمهور الذي يترجم إليه النص. فالمؤلف قد كتب لجمهور آخر يعرفه ويفهمه، ويعرف كيف يكتب إليه، وما هو الأسلوب الأنفع والأكثر فائدة في مخاطبته والتحدث إليه، والطريقة الأفضل في تقديم فكرته إليه، والصياغة الأدبية المناسبة في بلورة تلك الفكرة وتجسيدها.

هذا في حين يواجه المترجم جمهوراً آخر وقراء غير القراء الذين كتب لهم المؤلف. ومن الطبيعي أن يتسم جمهور المترجم بخصوصيات فكرية ونفسية وبميزات حضارية وثقافية تختلف عن الخصوصيات والميزات التي عليها جمهور المؤلف. وهناك احتمال كبير في أن لا يكون للنص المترجم نفس الواقع والتأثير على هذا الجمهور الجديد، وهذا ما يقحم المترجم في ميدان مشكلة جديدة ذات حدود: فعليه أن يتسم بالأمانة في النقل والحفاظ على طبيعة المادة المترجمة من جهة، كما عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار الخصوصيات التي يتميز بها الجمهور الذي يترجم إليه. ولا ريب في أن عملاً كهذا لابدّ وأن يترك آثاره على صعيد حدوث شيء من الاختلاف بين النص المؤلف والنص المترجم، ولا يعد النص المترجم في مثل هذه الحالة صورة طبق الأصل للنص الأول، ولا تعد الترجمة مجرد ثوب جديد، وإنما مساحيق جديدة ورتوش إضافية أيضاً. - الإلمام باللغتين: وعلى ضوء هذه المهمة الشاقة التي تنتظر المترجم، ومن أجل تقليل الاختلاف بين نص المؤلف ونص المترجم إلى أقل ما يمكن، فلا بدّ من تميز المترجم بالللمام الكافي باللغتين، أي لغة التأليف ولغة الترجمة. فلا يكفي مجرد الإلمام بإحدى اللغتين، وإنما لابدّ للمترجم أن يكون ملماً وفي مستوى رفيع جدّاً باللغة غير الأم أيضاً، كي يكون أكثر استيعاباً ليس لمفرداتها فحسب، وإنما للطريقة التي تصاغ بها عبارات ودللات هذه العبارة وإيحاءاتها التي تختلف باختلاف الحدث التي تتحدث عنه، وباختلاف طبيعة استخدام المفردات، والمصورة التي تزج فيها المفردة في غمار الحدث. كما تبرز الحاجة أيضاً إلى تجاوز المترجم في المقامه باللغة غير الأم، مجرد الإلمام بظاهر اللغة ومعاني الكلمات وطريقة ترتيب الجمل والعبارات، إلى استيعاب الروح اللغوية أيضاً، وقراءة ماوراء الكلمات، وادراك المعاني الخفية، والإيحاءات الرمزية، والدللات التي لا يمكن لظاهر الألفاظ أن يعبر عنها أو يشير إليها. فبعض المفردات تعطي بعض المعاني التي لا يمكن أن تظهر من خلال ظاهرها، وإنما لابدّ من التفتیش عن معاناتها الحقيقي في باطن تلك

المفرددة اعتماداً على موقع المفرددة في الجملة أو العبارة من جهة، والطابع العام الذي يكتنف العبارة أو المقطع من جهة ثانية، والإيحاءات المنسجمة مع روح النص والتي توحى بها المفرددة أو العبارة من جهة ثالثة. - المعايشة اللغوية: إنّ "ترجمة طواهر المفردات والعبارات في بعض الأحيان، توقع المترجم في مغالطات لا يمكن تداركها وتعكس طابعاً على النص غير الطابع الذي يعكسه النص الأصلي، وقد تخل بمساره وشكله العام. ولا يتأتي فهم المعاني المستترة أو المغزى اللامرئي الا من خلال فهم المترجم لروح اللغة غير الأُم ومعايشته لهذه اللغة من خلال التعايش مع المتكلمين بها وتبليور ذهنية خاصة لديه عن تلك اللغة. ومن هنا، قد لا يكون الالمام اللغوي الناجم عن الدراسة الأكاديمية كافياً على صعيد الترجمة، لأنّ الدراسة الأكاديمية الصرفة ليس بما كانها أن تقدم للمتعلم الروح اللغوية، ولا توفر له الفرصة لكي يفهم بواطن الكلمات ويستوعب المعاني ليس من خلال ظاهر الكلمة، بل من خلال طريقة تلفظها، وأسلوب عرضها ،علاقتها بما قبلها وما بعدها من الكلمات.. - المترجم الناجح: ولابدّ أن نشير أيضاً إلى الترجمة وانطلاقاً من كونها فناً وأدباً وعلماً، وعلى ضوء كونها مهمة صعبة شاقة بحاجة إلى خبرة، واستيعاب، وتحصص؛ فليس بمقدور كل أحد أن يشمر عن ذراعه وينهض بهذه المهمة، مهما بلغ ذلك الشخص من المام باللغتين: لغة التأليف ولغة الترجمة. فما أكثر أولئك الذين لديهم تمكّن من لغة أخرى إضافة إلى لغتهم الأُم، الا انهم يعجزون عن ترجمة نص من وإلى هاتين اللغتين، بالمواصفات الفنية التي لابد من توفرها في النص المترجم. بعبارة أخرى ليس بماكان كل من يلم بلغتين أن يترجم، لأنّ الترجمة لا تعني مجرد الالمام باللغتين، وان كان هذا الالمام عنصراً مهمّاً عن عناصر الترجمة، وانما هناك عناصر أخرى لابدّ من توفرها في المترجم كي يكون مترجمًا وفي مقدمتها، أن يكون المترجم مؤلفاً أيضاً، أي ان تكون لديه القابلية على الكتابة والتأليف قبل أن تكون لديه القابلية على الترجمة. فالمترجم الناجح هو المؤلف الناجح وليس بمقدور المترجم الذي لا يمتلك القدرة على التأليف، أو ليس لديه تجربة تأليفية، أن ينجز ترجمة ناجحة، أو ان تسفر ممارسته للترجمة عن إعمال ترجمة ناجحة، فالمؤلف المل بلغة الترجمة ولغة المؤلف الذي يترجم له، بما كانه أن ينجح في حقل الترجمة، إذا توفرت لديه باقي الشروط الأخرى التي أشرنا إلى شيء منها ضمن هذا المقال.